مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية 2011، المجلد 13، العدد1 (A) ص 235-266

رحلة "نيكوس كازانتزاكي" إلى بيت المقدس
دراسة في المضمون

Nikos Kazantzakis's Trip to Jerusalem

عبد الخالق عبدالله عيسى

قسم اللغة العربية

جامعة النجاح الوطنية – نابلس

تاريخ الاستلام 2010/5/25 تاريخ القبول 2011/1/9

الملخص: تتناول هذه الدّراسة رحلة الروائي اليوناني الكبير "نيكوس كازانتزاكي" إلى بيت المقدس سنة 1926، موفدا من صحيفة" الغيثروس لوغوس" ؛ ليسجّل مشاهداته في احتفالات عيد الفصح، وقد وضع رأيه في المسيحيين الذين رافقوه على ظهر السفينة من اليونان ، والمسيحيين العرب الذين قابلهم في بيت المقدس ،وكذلك العرب المسلمين ، وتحدّث طويلا عن اليهود ، من حيث طقوسهم في العبادة أمام حائط المبكى ، وطموحاتهم في السيطرة على فلسطين والتوسّع إلى غيرها، ووصف أمكنتهم ، وحاول بعد ذلك كلّه تحذير العالم من أحلامهم التي لا حدود لها، وقد تخلّل رحلته وصف لبيت المقدس، وأريحا ،والخليل، والجليل وأماكن أخرى.

Abstract: This study deals with the Greek novelist Nikos Kazantzakis's trip to Jerusalem in 1926. He came to Jerusalem as a correspondence for Getherous Lugas newspaper to write about Ester celebrations there. He expressed his opinion about the Christians who accompanied him from Greece, the Arab Christians he met in Jerusalem, as well as the Arab Muslims. He wrote in detail about Jews in Palestine and the rituals of their prayers in front of the Western Wall (Wailing Wall). He wrote about their dreams and ambitions to have control over Palestine and to extend this control to include other Arab countries. Then, he described their places and cautioned the whole world against their endless dreams and ambitions, The narrative of his trip contains a description of Jerusalem, Jericho, Hebron, Galilee, and other places.

مقدمة

تأتي هذه الدّراسة لتستجلي رأي الكاتب اليوناني الكبير "نيكوس كازانتزاكي" في مدينة القدس بأمكنتها وبشرها بمختلف دياناتهم ؛مسلمين، ومسيحيين ، ويهود، في رحلته إليها عام 1926.

وقد اقتصرت الدّراسة على المضامين، ولم تبحث في الجانب الفنّي؛ لأنّ النّص جمع في شكله بين ملامح الرّواية، والتقرير الصحفي، والرّحلة.

وقد حمل من المضامين المهمّة ما يستحق إفرادها، والبحث في ظلالها، وقد لاحظ الباحث أنّ الحديث عن اليهود قد استحوذ اهتماما كبيرا فاق غيرهم من المسلمين والمسيحيين،ولاحظ أنّ الكاتب قد اعتمد في حديثه عنهم على صورتهم في أوروبا، ومشاهداته في فترة وجوده في القدس عام 1926، وعلى قراءاته للتوراة .

علما أنّ النّصّ قد توزّع في مادّة مقتضبة تتّصل بالمسيحيين اليونانيين الذين رافقهم الكاتب في زيارتهم إلى بيت المقدس على ظهر السفينة ؛رجالا ونساء، ومادّة مقتضبة أيضا تتّصل بالمسيحيين العرب في بيت المقدس رجالا ونساء، ومادة أطول بقليل تتّصل بالعرب المسلمين هناك، ومادّة كبيرة عن اليهود.

وكنت معنيّا بإظهار مواقف الكاتب بدقّة، ولهذا أكثرت من الاقتباسات التي جاءت شواهد على المضامين التي عرضتها.

وفي ختام الدراسة كنت معنيّا بإظهار التشابه في الصورة بين ما ورد في هذه الرحلة قيد الدراسة والأدب الغربي والعربي ؛ ولهذا عرّجت على صورة اليهود عند شكسبير، وصورتهم في أدبنا العربي، وقد مررت سريعا على نماذج ممّا ورد عند أبي حيّان التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة"، وعند ابن عبد ربّه في كتابه" العقد الفريد" وأبي نواس في "ديوانه".

تمهيد

الرحلة من الفنون النثرية المهمة التي تقدّم مادة تتّصل بجوانب الحياة كلّها، ففيها تاريخ، وجغرافيا، وعلم اجتماع، وأدب، وفيها حديث عن الدّيانات، وما يتصل بها من

طقوس، وفيها تسجيل للمشاهدات والانطباعات. ورد في العتبة الأولى لرحلة السيرافي كلمة للمحقق يقول فيها: "هذا كتاب فيه سلسلة التواريخ والبلاد والبحور وأنواع الأسماك، وفيه علم الفلك وعجائب الدنيا وقياس البلدان والمعمور فيها، والوحش ....، وغير ذلك، وهو كتاب نفيس"[1].

وقد تتجاوز الرحلة كلّ ذلك لتؤدّي وظيفة دعائية تنظيرية، تتّصل بالذات والآخر، فتخرج عن الموضوعية والعلمية .

ولا بدّ من القول إنّ الرحلات في تاريخنا العربي والإسلامي قديمة، يصعب حصرها، وهي متعددة في أغراضها، وأشكالها ،علما أنّ مفردة "رحلة " وردت في القرآن الكريم مرّة واحدة في سورة "قريش؛ قال تعالى:" لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ * إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ *فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ *ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ "[2]. وقد اختصّت هذه السورة بكاملها برحلة قريش التجارية ؛ بحكم موقع مكة :"بواد غير ذي زرع " ؛ كما ورد على لسان إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى:" **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**"[3].

وقد لمعت شخصيات كثيرة في هذا الفن، ومنهم ابن بطوطة وابن جبير. ويعدّ القرن العاشر الميلادي قرن النّضج والتطوّر للرحلات؛ لكثرتها وازدهارها، ولتشكّل المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية [4] ونذكر من الرحّالة في هذا القرن للتمثيل ابن حوقل والمقدسي والإصطخري وأبا زيد البلخي والمسعودي، والأخير يعدّ من أعظم الجغرافيين أصالة في هذا القرن.

ويطلع علينا في القرن الحادي عشر اسم أبي الريحان محمد البيروني الذي كان قد

([1]) السيرافي : الرحلة، ت عبدالله الحبش، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م، ص11.

([2]) القرآن الكريم، سورة قريش، آية (106) .

([3]) سورة إبراهيم، آية (37) .

([4]) كراتشكوفسكي، أغناطيوس : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر (د. ت) 1|177.

التحق بالسلطان محمود الغزنوي في غزنة سنة 1017، حيث قام برحلات علمية في بلاد الهند وقضى فيها نحو أربعين سنة، وألّف كتابه الموسوم ب(تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) [1]

وأدّت الرحلات دورا سياسيّا مهمّا ؛ إذ كان بعضها يهدف إلى الاطمئنان على أبناء الجالية الواحدة، وتحسّس أخبارهم، وكشف همومهم ومشكلاتهم ؛ للبحث عن وسائل تعينهم، وتحسّن من أمور حياتهم، ومن ذلك رحلة(بنيامين التطيلي) إلى المشرق بعامة، والقدس بخاصة، فقد ارتحل بنيامين من سنة (561 ــ 569 هـ) إلى المشرق موفدا من الهيئات اليهوديّة في إسبانيا؛ للاطّلاع على أحوال يهود المشرق في ذلك العصر الذي كان فيه يهود أوروبا يعانون من الضيق والاضطهاد[2]

وهذه الرحلة تقدّم معلومات مهمة عن أحوال اليهود في المدن التي زارها الرّحالة؛ فهي تكشف عن عددهم، وطرق كسبهم، ومركزهم العلمي والاجتماعي[3]

ولأهميّة الرحلات في مخاطبة العقول والتأثير فيها سلبا وإيجابا، فقد اعتمدت بعضها في المدارس الثانوية، وألزم الطلاب باقتنائها، وفهم محتواها، وبخاصة في زمن الانتداب، ومن ذلك رحلة كنغليك إلى المشرق (1834 ــ 1835) .ورد في مقدمة الرحلة:" وهذا الكتاب كان يعطى للصّفوف الثانوية في مدارس حكومة الانتداب على فلسطين، وقد عرف هذا الكتاب بسلامة لغته ودقّة تعابيره، وله ميّزة أخرى، وهي أنّه يتحدّث عن بلادنا منذ قرن وثلث قرن من الزمان"[4].

وأمّا القيمة الأدبيّة للرحلات فتظهر في جمعها بين أساليب قصصية كثيرة ؛ من سرد

([1]) ينظر محمود ،حسني: أدب الرحلة عند العرب، رحلات أمين الريحاني نموذجا، الوكالة العربية للتشر والتوزيع، (د.ت) ص13.

([2]) التطيلي، بنيامين ، الرحلة، ترجمة عزرا حداد ، بغداد ، 1945 ، ص98 ــ 104.

([3]) ينظر الحجمة ، نواف عبدالعزيز : رحلة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري (12 ــ 14 م) ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة . الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2008، ص 59.

([4]) ابن كنغليك: الرحلة إلى المشرق (1834 ــ1835) نقلها إلى العربية محمود العابدي، 1971، عمّان، ص3.

قصصي، إلى حوار إلى وصف، إلى غير ذلك، وقد اتّخذ شوقي ضيف من هذه السمة مادة للرّدّ على من اتّهم الأدب العربي بقصوره في فن القصّة، يقول عن الرحلة هي: "خير ردّ على التهمة التي طالما اتّهم بها الأدب العربي، تهمة قصوره في فن القصة"[1].

ولا شك أنّ الأراضي الفلسطينيّة المقدّسة قد نالت اهتماما كبيرا من الغرب ؛ لأسباب كثيرة، بعضها يعود إلى قدسيتها، فهي في نظرهم مركز الديانات السماوية، وموطن ميلاد المسيح عليه السلام، وبعضها يتّصل بموقعها الاستراتيجي ؛ فهي تمثّل حلقة الوصل بين الشرق والغرب، وهي معبر للقوات العسكرية في فترات كثيرة، وبعضها يعود إلى الجانب الاقتصادي[2]،وبعضها يتّصل بأهداف استشراقيّة لم يعلن عنها.

وبعد، فإنّ الحديث عن الرحلات لا ينتهي، وقد تجاوزت أشياء كثيرة، تتّصل بأنواع الرحلات وأهدافها وأعلامها ؛ لعلمي أنّها مبثوثة في دراسات يصعب حصرها، وقد اكتفيت بتمهيد بسيط جعلته مدخلا لرحلة حديثة، تستحقّ من الاهتمام الكثير.

رحلة نيكوس كازانتزاكيس إلى بيت المقدس

أهميّة الرحلة:

من الرحلات العالمية إلى بيت المقدس رحلة" الروائي اليوناني الكبير " نيكوس كازانتزاكيس"، وهي تعد أخطر وثيقة يكتبها روائي ومفكر عالمي في أوائل هذا القرن[3] فبين عامي 1926 و 1927 أوفدت صحيفة " الغيثروس لوغوس" الروائي اليوناني الكبير "نيكوس كازانتزاكيس" المرشح لجائزة نوبل عام 1956، إلى فلسطين ليسجّل مشاهداته في احتفالات عيد الفصح. وقد نشرت هذه المشاهدات في الصحف اليونانية في العام نفسه[4].

([1]) ضيف، شوقي : الرحلات، دار المعارف، سلسلة الفنون الأدبيّة، 1956، ص6.

([2]) فورزبورغ ، يوحنا: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1997، ص11.

([3]) ينظر ما كتبه المترجمان على غلاف الرحلة .

([4]) كازانتزاكي، نيكوس : رحلة إلى فلسطين، ترجمة منيّة سمارة ومحمد الظاهر،مؤسسة خلدون للدراسات والنشر، 1989، ص3

وتعدّ هذه الرحلة من أهم الرحلات التي تتحدّث عن اليهود في العصر الحديث ؛ لأسباب كثيرة، أهمّها :

أوّلا: أنّها أنجزت قبل قيام الدولة العبرية بقليل، وقد استطاع الكاتب اليوناني الكبير " نيكوس كازانتزاكيس" الولوج إلى نفسيّات اليهود، وقراءة أحلامهم ومخطّطاتهم . وقد حاول تحذير العرب بصوت عال، قبل أن يعي العرب بخاصة، والعالم بعامة الأهداف الحقيقية لليهود من توافدهم إلى فلسطين بمسمّيات كثيرة.

ورد في التصدير لهذه الرحلة:" لقد كانت هذه المقالات والمشاهدات، نبوءة، وإشارة تحذير للخطر القادم، قبل أن تكون مجرّد مشاهدات قام بها كاتب كبير لفلسطين ففي هذه المقالات، يحاول نيكوس كازانتزاكي أن يطرح نبوءته للقرن العشرين، هذه النبوءة التي جاءت الوقائع لتؤكّد صدقها، وتؤكّد الفكر النيّر الطليعي لهذا الكاتب"[1].

ثانيا: أنّ الأحداث والمشاهدات، التي عرضها لم تكن منفصلة عن الماضي، ولم تكن منفصلة عن وجود اليهود في أوروبا، أما هدفه من هذا الربط، وهذا الاستحضار فهو رسم صورة لمستقبل اليهود اعتمادا على ماضيهم وحاضرهم..

ثالثا: ما تمتاز به الرحلة من جرأة وصراحة وموضوعية ندر أن نجد مثيلا لها ؛ فهو من القلائل الذين تحدّثوا عن النهاية التراجيدية للحلم الصهيوني، بوصفها حتميّة تاريخية، وإن نجحوا في تحقيق كيان ما في المستقبل.

رابعا: الدقّة في وصف الأمكنة المقدّسة، والتّفاعل الروحي معها، بصرف النّظر عن ديانة أصحابها.

خامسا: بدا الشرق عنده مصدر جذب سحري، ومصدر إلهام وإبداع، " فهو كإنسان كريتي، يشعر بصلة القرابة مع هذا الجزء من العالم، ويرغب في أن يؤكّد إيمانه، بأن أجداده، يجري في عروقهم الدّم البدوي"[2].

ولأهمية حديثه عن اليهود في فلسطين آنذاك، وخطورة نبوءته فيما يتّصل بمستقبلهم

([1]) السابق، ص4.

([2]) الرحلة، ص7.

القريب والبعيد، نشرت زيارته مفصّلة في كتابه "ترحال" في عام 1927[1]. وقد نظر فيها إلى هذه البلاد نظرة شاملة، فقدّم رأيا واضحا في الأمكنة والناس، والفكر الذي يتحكّم في السلوك ويرسم صورة المستقبل المأمول، وقد تطوّرت آراؤه وانعكست تجلياتها في أعماله:"تقرير إلى غريكو" و"الامتحان الأخير للمسيح" و"الوجد اليوناني" و"الحريّة أو الموت"[2].

العنوان:

حمل العنوان "رحلة إلى فلسطين " وتحته عبارة أخطر وثيقة ضدّ الصهيونية يكتبها روائي ومفكّر عالمي في أوائل هذا القرن، دلالة واضحة على أهميّة الرحلة، وخطورتها، وقد أكّد هذه الخطورة اللون الأحمر الذي غطّى العنوان .

ولم ينس الكاتب أنّه روائي، إذ بدت سلطة التقنية الروائية سيفا مسلطا على النّص، فكلّما حاول العودة إلى متطلّبات الرحلة، خانته أدواته، واستعصت عليه، فجاء نصّه يجمع بين الرواية، والتقرير الصّحفي، والرّحلة.

أما العناوين التي انتظمت فيها مادّته، فجاءت على النحو الآتي:

العنوان الأول: الفزّارة [3] رفيقة رحلتي.

وقد حمل العنوان استعدادا روحانيّا لدى الكاتب لخوض الصّعاب من أجل تحقيق البطولة، دون النظر إلى النتائج، فالمهم عنده هو النّضال في سبيل الغايات النبيلة وزيارته إلى بيت المقدس واحدة من هذه الأهداف النبيلة، وجاءت رسالته مختصرة في قوله:" وأنت تدرك جيّدا أنّ الموت لا ينهزم، ولكّن قيمة الإنسان ليست في النّصر، بل في النّضال من أجل صنع النّصر، بل أنّ المهمّة أصعب من ذلك، فأنت تدرك أن قيمته ليست في النضال من أجل النصر، وإنما في هذا الشيء فقط : أن يعيش ويموت شجاعا لا يأبه بالمثوبة والأجر"[4].

([1]) السابق،ص3

([2]) السابق،ص6، وما بعدها.

([3]) الفزّارة: أنثى الببر، والببر سبع هندي مخطّط، غير النمر، ويدعى عسد وخرناق، وتطلق على المرأة المتنمّرة .

([4]) الرحلة، ص13.

أمّا العنوان الثاني فهو: نحو أرض الميعاد.

للوهلة الأولى يتوقع المتلقي أن الكاتب يؤمن أنها أرض الميعاد التي استقرّت في لاوعي اليهود، وأصبحت في خلدهم حقا يلحّ عليهم ليصلوا إليه بعد تجوال طويل في هذا العالم المترامي، لكن من يتمّ قراءة النص، يجده لا يعني ما يقول، بل على النقيض تماما. إنه يؤمن أن أرض فلسطين لن تكون لهم في يوم من الأيام، وهي ليست حقا لهم. أمّا إن حاولوا الاستيطان فيها فإنّ العرب لن يتركوهم أبدا، وستؤول حياتهم إلى الشتات من جديد؛ لأنّ هذه حتمية تاريخية . يقول موجها خطابه لليهود:" لقد تعبتم إذا؟ لكنّ الحتميّة التاريخيّة التي تسيّر الأجناس لن تتوقف لتسألكم، إنها تدفعكم بلا هوادة، شئتم ذلك أم أبيتم . وهذه الحركة الصهيونية الحديثة، أيضا، ليست سوى قناع يلبسه قدركم المتجهّم ليخدعكم إلى ما لا نهاية . ولهذا السبب فأنا لا أخاف الصهيونية : كيف يستطيع خمسة عشر مليونا من اليهود أن يحشروا أنفسهم هنا ؟ لن تجدوا الأمن هنا، فخلفكم ــ وهذا هو الذي يجب ألا تنسوه أبدا ــ جموع من العرب السمر الأشداء المتحمسين"[1].

إنّ الحركة الصهيونية من وجهة نظره قناع يخدع اليهود ويضلّلهم، ويسلمهم إلى قدر مجهول قد يكون فيه نهايتهم على يد العرب السمر الأشدّاء(كما وصفهم)، وكما هو واضح فالكاتب لم يكن حياديّا البتة في تناوله أيّ أمر يتّصل باليهود، أو بغيرهم، وآراؤه واضحة وضوحا يلغي أيّ تأويل .

لقد بدأ رحلته إلى فلسطين تحت هذا العنوان (نحو أرض الميعاد) بوصف رومانسيّ حالم، يحمل كلّ معاني التفاؤل، والأمل، يستمدّها من صفاء السماء بما فيها من غيوم وطيور مغرّدة،، ومن زرقة البحر وامتداده، وما يلامسه من شواطئ، وما يجري فيه من سفن. يقول:"البحر الذي كان يحمل الحجّاج إلى القدس، كان هادئا، والسماء بغيومها الرقيقة، كانت قد اتّشحت بغلالة شفافة ساحرة غريبة.أمّا شواطئ اليونان، وجزرها، ونوارسها، ودلافينها المرحة، وطيورها الصغيرة التي ترفرف وتغرد بين أشرعة السفينة، فقد ساهمت كلّها في بث جوّ من الدفء والسحر، النادر في نفوسنا، هذا اليوم"[2].

وجاء العنوان الثالث يحمل اسم القدس.

([1]) الرحلة ، ص84.

([2]) السابق، ص84.

وقد تحدث فيه عن مداخلها، وكنائسها، ومساجدها، وساحاتها، وأعمدتها، ورجالها ونسائها، وتناولهم بحسب دياناتهم، وكشف عن الخلافات الحادّة بين الطوائف المسيحيّة هناك؛ بسبب مراكز النفوذ في المدينة، وسلط الضوء على التصرفات الهوجاء عند بعض العامة، واهتمّ بالمقتنيات التي شدّته .

أمّا العنوان الرابع فكان "فصيحيّة"

وفيه قدّم مشاهداته لطقوس العبادة في كنيسة الانبعاث، ونقل أوصافا دقيقة للمكان وأهله.

أما العنوان الخامس فكان "جامع عمر"وقد أظهر فيه الكاتب إعجابا شديدا بالجامع وبالمسلمين.

وعنون السادس ببكاء العبرانيين؛ وقد نقل فيه طقوس عبادة اليهود أمام حائط المبكى.

وعاد في العنوان السابع إلى تكرار أرض الميعاد ؛ وفيه وضع رسالته إلى اليهود والعرب، وكشف عن نوايا اليهود الخبيثة المبيّتة، للمكان، وأهله.

أمّا التفصيل في كلّ ما ذكرناه فجاء على النحو الآتي:

مشاهداته على ظهر السفينة

صورة اليوناني الزائر

إنّ أوصافه للناس حملت موضوعية واضحة، وقد قدّمهم بحسب دياناتهم وأجناسهم .ومن أجل إقناع القارئ بهذه الموضوعية بدأ بالمسيحيين اليونانيين الحاجّين إلى بيت المقدس . فقد رآهم يتوزعون على ظهر السفينة بحسب طبقاتهم الاجتماعية، الفقراء على السطح، وهم أقرب إلى المخاطر والأهوال، أمّا الأغنياء فقد اختاروا صالونات مريحة، تصدح فيها الموسيقى، وأشار كازنتزاكي إلى بعض العادات الممقوتة عند اليونانيين رجالا ونساء .يقول:" لقد جاءوا من مختلف أنحاء اليونان، وتجمّعوا في هذه القافلة الدينية، بعضهم حمل معه أمتعته وصناديقه، وآخرون حملوا معهم صررا بسيطة، وسلالا .وحال صعودهم إلى السفينة انقسموا إلى عالمين مختلفين، النصف الأول على السطح، والنصف الثاني في مجرات، وصالونات مريحة تصدح فيها الموسيقى ..." [1]

([1]) الرحلة ،ص19.

ويبدو أنّ الحديث عن الطبقية في الرحلات على السفن اليونانيّة المسافرة إلى بيت المقدس ليس جديدا، فهذا كنغليك في رحلته إلى المشرق(1834 ــ 1835) يقول:" كانت مراكب الحجّاج في ميناء يافا، وقد جاءت كلّ طبقة من سكان أوروبا بسفينة خاصة بها ــ سفينة للنبلاء أبناء الأسر الشريفة، وسفينة تحمل أدنى درجات المجتمع ــ كلّ منهما يحافظ على تقاليده وطرق معيشته ... وكانت معظم السفن التي تنقل الحجاج يونانية، وكانت تعاني المشقات قبل أن تصل بهم إلى قرب الموانئ، ولا سيّما وأن سفرها كان يتمّ في فصل الشتاء، حتّى يصل الحجّاج إلى القدس قبيل عيد الفصح "[1].

ويفهم مما ورد أنّ رحلات الحجاج الدينية عند كثيرين قد لا تعنى بإزالة الفواصل الطبقية بين الحجّاج الذين يلتقون في مسعى ديني واحد، وهو الحج إلى الأماكن المقدّسة والتقرّب إلى الخالق . وعليه فإن التقت الأرواح في روحانية واحدة، فإن الأجساد ترفض إلا أن تبقى في عوالمها الدنيويّة، تنجذب إليها، وتتمسّك بها.

ولم ينس الكاتب الحديث عن الثقافة الدينية لدى بعض الرجال الذين رافقوه، فهذا أحدهم يقرأ على المسافرين شيئا يتّصل بميلاد السيّد المسيح، عليه السلام، وحياته، وآلامه، ويكشف المؤامرة التي قادها الحواري الخائن حين ذهب إلى جبل الزيتون. يقول: "كان رجل عجوز، متورّد الخدّين، متهدّل الشعر، يجلس، وهو يقرأ بصوت عال تاريخ المسيح: حياته، آلامه، كيف ذهب الموكب إلى القدس، وبعد ذلك كيف تناولوا العشاء الأخير، وكيف تركهم الحواريّ الخائن على وجه السرعة، وكيف ذهب المسيح إلى جبل الزيتون، وكيف كان العرق يتصبّب من جبهته على شكل قطرات من الدّم ..." [2]

وحديث الرّاهب هذا يماثل حديث الواعظ المسلم الذي يرافق الحجّاج والمعتمرين إلى مكّة المكرّمة ، يذكّرهم بمبادئ دينهم ، ويعلمهم أركان العبادة وآدابها .ويبدو أنّ كازانتزاكي كان يقصد من إيراد هذه القصّة التي تتّصل بالخيانة أن يجعل منها مدخلا للحديث التفصيلي عن اليهود.

المرأة اليونانية على ظهر السفينة

([1]) السابق، ص81 وما بعدها.

([2]) الرحلة ،ص20.

اقتصر حديثه عن المرأة اليونانية على عيّنة واحدة، وهن المسنات، ويبدو أنّ هذه هي الفئة التي رافقتهم في رحلتهم دون غيرها . وقد تابع الكاتب ما بدر منهن من تصرفات ممقوتة ؛ ومنها فتح سلال الطعام في أوقات متقاربة، وعدم الاهتمام بالروائح المختلفة التي تنبعث منها، ولو كانت البصل، حتى كاد من الصّعب على الكاتب أن يرى أسنانهنّ تتوقّف عن المضغ. يقول:"وكانت مجموعة من النسوة الهرمات قد فتحن سلالهن وبدأن المضغ، فامتلأ الجو برائحة الكافيار الأحمر، والبصل ... كانت النسوة الهرمات، الملتفّات بشالاتهن السوداء يستمعن بانسحاق شديد، يهززن رؤوسهن، ويتنهدن، لكن دون أن يتوقفن لحظة واحدة عن المضغ، كنّ يمضغن بتبلّد، وهدوء، كالنعاج ...." [1]

فحديث كازانتزاكي عن المرأة اليونانية يكشف عن ازدرائه لتصرّفات المسنّات من بني جنسه ؛ وحدّته في وصفهنّ ؛ وهذا واضح في تشبيههنّ بالنّعاج .

ومن يطّلع على حياة كازانتزاكي يعرف أنّ المرأة عنده ليست ممقوتة، ولكنّه كان يفضّل أن يبقى اتّصاله بها محدودا، ولا أدلّ على ذلك من اقتصار علاقته بزوجته الشابة الصغيرة، التي كانت في مطلع العشرينيّات من عمرها، على عشرة أيّام فحسب في السنة الواحدة، وقد رضيت بهذا وعاشت أجمل سنيّ عمرها.

النساء المسيحيّات في فلسطين:

لا تختلف صورة النساء المسيحيات في فلسطين اللواتي تحدّث عنهنّ باقتضاب عن صورة النساء الوافدات من أوروبا، فقد جاءت صورتهن قميئة أيضا؛ فهنّ لا يتورعن في الكشف عن صدورهن أمام الجموع الغفيرة ليرضعن أطفالهن، وتنبعث من أجسادهن وشعورهن روائح كريهة كروائح المواشي، تبعث على الغثيان، وتثير الاشمئزاز في النّفس . يقول: " وكانت أباريق القهوة تغلي على المواقد المتنقلة تحت الأيقونات العظيمة، والأمّهات يكشفن عن صدورهنّ، أمام هذه الجموع الغفيرة، ليقمن بإرضاع أطفالهنّ، وكانت رائحة العرق البشري النتنة تملأ الجوّ ... ورائحة شعور النّساء، كلّها تصدر رائحة كرائحة المواشي، وتبعث على الغثيان" [2]

([1]) السابق ،ص19.

([2]) الرحلة ،ص32، وما بعدها.

الطوائف المسيحيّة في بيت المقدس:

أوّل ما يشدّ الكاتب، كما هو ظاهر،في معظم مشاهداته، وما يمكن الإمساك به بإحدى حواسّه هو الرّائحة، فكما ازدرى رائحة المسيحيّات العربيّات، ازدرى رائحة المسيحيين العرب، فهي لا تحتمل، وقد يكون سببها أنّ بعضهم لا يجدون ضيرا في قضاء أوقاتهم مع زوجاتهم تحت البطانيات في الزوايا المظلمة للكنيسة، على الرّغم من قدسيّة المكان، ونبل المسعى إليه، وهذه تصرّفات قلّما نجدها في أماكن العبادة، وهي تكشف عن عدم احترام لهذه الأماكن، وقد أراد كازانتزاكي انتقاد هؤلاء في سلوكهم الآدمي، وبخاصة تلك الأفعال التي تجمع مفارقات في السلوك تتطلّب من صاحبها أن يعيش حالات نفسية مختلفة ؛ (ضحك، وبكاء، وتنهّد، وترتيل، وعبث).

يقول: "أمّا الرّائحة النتنة التي تشبه رائحة الماعز التي تنبعث من الرجال العرب، فقد كانت لا تحتمل .ضحكات، دموع، تنهّدات، والرّجال. بعضهم يرتّل ويترنّم، والبعض الآخر، يقضون أوقاتهم مع زوجاتهم تحت البطّانيّات الملوّنة، في الزّوايا المظلمة للكنيسة، وحينما تعبر من خلال هذا الجو الخانق، تفاجأ بالضّحكات التي تترقرق من الفتيات الصّغيرات اللواتي يدغدغن "[1]

ويمكن القول إنّ سبب انجذاب كازانتزاكي إلى الروائح يمتصّها ويصدر رأيا فيها، عائد في بعض جوانبه إلى الموضوع الجنسي، الذي نجده حاضرا في رواياته . يقول في وصفه لامرأة عربية :"كان نهداها المترهّلان يلامسان بطنها .وكانت الأنفاس تتردّد واحدا بعد الآخر .وكانت الرّوائح المختلطة تهبّ عليّ .بعضها يحمل رائحة الخمر والثوم، وبعضها يحمل رائحة الشموع المحترقة والبخور واللّبان، وبين لحظة وأخرى كان يداعب أنفي شذا زهور الرّبيع السّماوية ؛ فقد جاءت إحدى الفلاحات وهي تحمل باقة من الزهر، ووضعتها على القبر"[2]

ويأخذ على المسيحيين في بيت المقدس الغوغائيّة في التعبيرعن أفكارهم، ومشاعرهم

([1]) الرحلة ،ص32، وما بعدها.

([2]) السابق ،ص32، وما بعدها.

باعتلاء الأكتاف والصراخ [1] وقد وصف هذه الروح بأنّها بربريّة، يقول:" أحد الفلاحين، كان قد عصب رأسه بأشرطة من وبر الجمال،وقفز على كتفي أحد العرب، وأخذ يلوّح بشمعة عيد الميلاد الضخمة البيضاء، التي تتطاير الأشرطة المربوطة بها، في الهواء. وأخذ هذا الفلاح، بشكل مسعور وهائج يدعو المسيح للظهور، وقد أحسّت الجماهير بهذه الروح البربرية تتغلغل في أجسادها..." [2]

ويشير إلى التنافس على الأماكن المسيحية بين الأرثودوكس والكاثوليك وغيرهم من الطوائف المسيحية الأخرى، ويذكر أن بعضهم كان يضع العوارض الحديدية ليمنعوا غيرهم من الطوائف من الوصول إليها. يقول:" راهب أرثودوكسي، كان يرسل نظرات حاقدة صفراوية،نحو الأقباط، والكاثوليك، والأرمن، انحنى علي، وقال لي بصوت مرتعش: هذه الكنيسة لنا نحن الأرثودوكس، كل الأماكن المقدسة لنا، وهؤلاء المارقون الذين لعنهم الله، يريدون أن يأخذوها منا، ولكننا نقوم بتسييج كل المناطق المتنازع عليها بالعوارض المعدنية؛ كي لا نسمح لأي إنسان أن يدخلها انظر ماذا أعطينا للأحباش، تلك الصخرة فقط، ولن نعطيهم بوصة واحدة أكثر من ذلك ..." [3]

الأماكن المقدّسة عند المسلمين:

اللافت أنّ الكاتب لم يزر المسجد الأقصى وقبّة الصّخرة ، ولم يقدّم وصفا لهما ؛ علما بأنّهما من أهم الأماكن الدينية عند المسلمين ، وتبرير ذلك أنّ الكاتب لم يكن قد وضع منذ البداية زيارة الأماكن المقدّسة عند المسلمين في مخطّطه ، وقد اقتصر وصفه في هذا الباب على مسجد عمر؛ والسبب ظهور المسجد في طريقه ، وقد قدّم وصفا دقيقا للمسجد وأهله وبدا معجبا إلى حدّ جعله يجول حوله وحيدا ،ويوجّه بصره نحوه لا يذهب إلى السماء أو إلى أيّ مكان آخر؛ فقد وجد روحانيته المبتغاة، فبدأ دمه يهدأ ،وذاكرته تنتعش، وغدا كلّ شيء ملائما له. يقول:" طفت حول مسجد عمر، وقلبي ينبض بابتهاج، كطفل ...ولم أمدّ قامتي باتجاه السماء ؛لأن هذه الأرض تبدو رائعة بالنسبة لي ....كنت أتجول وحدي ...وفجأة، وتحت شمس منتصف النهار الحارقة مسجد مقدس آخر يظهر بشكل

([1]) السابق،ص32، وما بعدها.

([2]) السابق ،ص33، وما بعدها.

([3]) السابق،ص35، وما بعدها.

غير متوقع أمامي، مغطّى من أساساته وحتى قببه، بالخزف الصيني الأخضر والأزرق، وبالزهور المرجانية .وفي الحال، شعرت بالدم يهدأ في عروقي، وبذاكرتي تنتعش، بدا كل شيء حولي رائعا، وملائما لي، في هذا الظل البارد بعد هذه المسيرة القاسية ... وجدت هذا المسجد يوفق بين قلبي وروحي، ويغمرني بالهدوء وكل من يزوره سيكون سعيدا بالتربع والتسبيح في هذا المسجد الذي ينبض بالإيمان والروائح الزكية"[1].

إنّ هذا الوصف يعيدنا إلى ما أورده الراهب الروسي (دانيال الراهب) في رحلته الموسومة ب"وصف الأراضي المقدّسة في فلسطين عام (1107م) يقول: "وتغمر البهجة كل مسيحي عند رؤية مدينة بيت المقدس الطاهرة، وتذرف الدموع عند ذلك المشهد. وليس بوسع المرء إلا البكاء عند رؤية هذه الأماكن التي طالما اشتاق الزائر لرؤيتها ..."[2].

والفرق بين الوصفين أنّ الأوّل خاصّ بأماكن المسلمين المقدّسة ، وخال من أيّة أهداف ؛ لكون الكاتب مسيحيّا ،أمّا الثاني فخاصّ بالأماكن المسيحيّة ، ولا يخلو من أهداف دينيّة.

ويتجلى احترام كازانتزاكي لمكان المسلم وازدراؤه لأمكنة اليهود وتجمعاتهم في قوله:" بينما كنت أتجول خلال هذه البالوعة الدموية لإسرائيل، استدرت، لأرى جامع عمر، يسمو أمامي تحت أشعة الشمس، مثل نافورة منحوتة من الحجارة النادرة، ترقى إلى السماء، وتفور مياهها قليلا في الهواء، ثم تدور على أعقابها متراجعة، وتعود ثانية إلى الأرض .فلم تعد لدي رغبة في مغادرة المكان. دلفت إلى الداخل وأنا مفتون مسحور، كانت الأحرف العربية مجدولة كالأزهار، حروف تكرس الحكم والمواعظ القرآنية، تلتف حول الأعمدة، كأشجار العنب المتّسقة،ثم تزهر ثانية وهي تحيط بالقبة ..." [3]

فالقدس مدينة طاهرة، وفي المقابل عند اليهود بالوعة دمويّة.

([1]) الرحلة،ص56.

([2]) الراهب ، دانيال :وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، نقلها إلى العربية وعلق عليها د سعيد عبدالله البيشاوي وداود إسماعيل أبو هدبة، 2003، ص48 وما بعدها. وانظر ص106.

([3]) الرحلة،ص55، وما بعدها.

والمؤمنون في فلسطين يعبرون ظلمة ما بعد الموت إلى جنات الله، ثوابا عادلا لهم، والمؤمن لا يزدري الأشياء الظاهرة ، ولا يبحث خلف الدلالات الواضحة[1]، وهذا ما دفعه للبحث عن المفارقات بين عالم المسلمين في بيت المقدس والعالم الآخر. يقول: " فالقلب هذه الأيام، ينبض بتسارع رهيب، تسارع لا يمكن الإحاطة به، إنه يصارع من أجل إيجاد الفروق "[2]. وهذه مسألة خطيرة قد تكون من أثر الدهشة التي سيطرت على الكاتب، وكادت تسلبه إرادته.

اليهود في بيت المقدس

يخصّص الكاتب فصلا من رحلته للحديث عن اليهود في بيت المقدس، علما أنه كان قد ذكرهم فيما سبق، ويعنون فصله ببكاء العبريين؛ وهذا متصل ببكائهم عند حائط المبكى، رجالا ونساء وأطفالا.

ويمكن أن نسجّل من هذه المشاهدات جملة من الملاحظات التي تستحق معاودة النّظر فيها غير مرّة، والتعمّق في مدلولاتها، وإيحاءاتها، وهي:

1 ــ اعتمد الكاتب في بعض أحكامه على الانطباع الأولي الذي يتشكّل من النّظر إلى عيون اليهود لأوّل وهلة ؛ وقد كان انطباعا سلبيّا ،حمله الكاتب عنهم، فبريق عيونهم يكشف عن تهكّم من الآخرين، وقلق دائم على المصير، وتشه عميق تجاه الأشياء التي يرغبون فيها، وأوّلها هذه الأماكن المقدّسة، وحسد للآخرين على بلادهم وخيراتهم . يقول: " كنت على عجلة من أمري وأنا أشق طريقي عبر شوارع القدس المعتمة المسقوفة .كان وميض عيون العبريين يومي بالتهكم، والقلق، والتشهي، والحسد... وأنت تمر بالقرب منهم ... كنت تواقا للوصول إلى حائط معبد سليمان، ذلك الحائط الذي مرّ عليه أكثر من ثمانية عشر قرنا حتى الآن .كان اليهود يندبون بلدهم المفقود،ويدعون الإله "يهوه" للنزول ثانية، كي يعيد الألق إلى معبده"[3]

([1]) السابق،ص55.

([2]) السابق،ص61.

([3]) الرحلة ،ص65.

أشار الرحالة الألماني ثيودريش المتعصب لليهود والمسيحين في رحلته إلى الأماكن المقدسة في فلسطين

2 ــ اعتمد أسلوب المقارنة بين الوجوه ؛فقد قارن بين وجوه اليهود ووجــوه المــسلمين؛ ليؤكّد الانطباع الذي تشكّل عنده من البداية.

يقول: " أما المسلمون فقد كانوا هادئين، مؤمنين بعمق وقناعــة برعايــة الله، وهــم يرمقونك"

ورأى أنّ وجوه اليهود قد استمدّت ضياءها من الوجوه العربيّة النحيلة، فبدت الأولــى غضّة ورديّة، وهذا يحمل معنى رمزيّا، وهو أنّ ألقهم وحياتهم وسعادتهم ســتكون كلّهــا على حساب تعاسة العرب ." الظلام والوجوه العربيّة النحيلة التي لهــا بريــق معــدني، وللحظة، كان ذلك المشهد، ينعكس حتّى على وجنات اليهود الشاحبة، التي اكتسبت لونــا ورديّا غضّا" [1]

3 ــ اعتمد على أسلوب التنبّؤ، وقد انعكست تنبؤاته بمستقبل اليهود على الأشــياء التــي وصفها، فمن الواضح أنه نجح في قراءة وجوه اليهود والدخول إلى نفوسهم وعقولهم وكشف خططهم التي تحاك في سراديب الوعي الكامن فيهم .يقول: "كانــت الــشمس على وشك الغروب ... وكان اللون القرمزي يغمــر مــداخل الــشوارع المعقــودة وأعمدتها، كأنه جدول من الدم ينبع من عين الشمس الغاربة..." [2]

فغروب الشمس يرمز إلى تغيّر مأساوي في حياة الشعب الفلسطيني، يؤكّد مخاوف الكاتب عليهم.

4 ــ استصغر من شأن الأمكنة التي يقطنها اليهود، ويعتزّون بها، ويجعلونها إرثهم الــذي

في القرن الثاني عشر الميلادي إلى المراحل التي معبد اليهود هذا، ثم هدمــه وبنائــه علــى يــد جماعــة الإسبتارية، والملاحظ أن هذا الرحالة أنكر وجود أي أثر للمعبد اليهودي في القــدس بالمواصــفات التــي تذكرها المصادر اليهودية؛ حيث أكد المؤلف أن المعبد قد تم تدميره من أساساته أكثر من مرة، لكــن فــي الوقت نفسه يرفض أن تكون كنيسة القديس جيمس في بيت المقدس هي معبد سليمان كما يعتقد اليهود.

انظر: ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق سعيد عبدالله البيشاوي ود. ريــاض مصطفى شاهين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2003، ص31.

([1]) الرحلة، ص 65، وما بعدها.

([2]) السابق ،ص65.

يربطهم بفلسطين. وقدّم وصفا دقيقا لحائط المبكى، أثناء متابعته لليهود، بمختلف أعمارهم، وأجناسهم، وهم ينوحون ويستجدون أمامه. يقول: "سرت خطوات لأجد نفسي أمام ذلك الحائط الذي أعيد تجديده . والذي يشكل الأثر الوحيد الباقي من معبد سليمان .وهو حائط عادي جدا، ذو حجارة ضخمة مرصوفة فوق بعضها بعضا دون حشوات اسمنتية بينها . الحجارة العالية مغطاة بالطحالب، التي تتدلى على الحجارة الواقعة أسفل منها."[1]

ويؤكّد إلحاح اليهود ورجاءهم بتحقيق أمانيهم من خلال حديثه عن مواصلة الالتصاق بهذا المعبد ومداومة البكاء على جدرانه، والترجي أمامه للذات الإلهية . يقول: " أما الحجارة الواقعة التي تقع في متناول أيدي الناس، والتي تصل إليها أيديهم ، فقد نظفت نتيجة للمسات، وقبلات وعناق اليهود ... لقد استمروا بالتوافد، وبتقبيل الجدران، وتمريغ وجوههم بالحجارة، وإطلاق التنهدات العميقة "[2]

ورأى أنّ هذه الطقوس تشبه التمثيليات ، في إشارة واضحة إلى خداع اليهود، وعدم وضوحهم في سلوكهم الظاهر. "فقد احتشد حاخامات... كأنّهم ممثلون عريقون قدماء، يتحلّقون كالعناقيد، ويشرعون في بكائهم الرّنان"

5ــ لم يستطع كازانتزاكي إخفاء سخريته من بعض حركاتهم ومن لحاهم، وقد تجلّى هذا في تشبيهاته، وتصويراته . يقول: " حيث تقدّم إلى المكان قزم محدودب الظهر، يعتمر طربوشا أحمر، وعمامة سوداء، ولحية سوداء كذيل الغراب، وأخذ يهتز أمامها وخلفا، بإيقاع معين وبيأس وقنوط"[3]

ولعلّ استحضاره للغراب الذي يرمز للشؤم في مختلف الثّقافات يجسّد موقفا واضحا منهم ، ويحمل تخوّفات من المستقبل ؛لأنّ الغراب ينعق بالخراب، ولا يثير في النفس سوى المعاني السّلبية.

6 ــ لم ينس في رحلته هذه متابعة أطفال اليهود، وهم يتشربون طقوس الكبار ويطبقونها

([1]) الرحلة،ص66.

([2]) السابق ، ص67.

([3]) السابق،ص66 وما بعدها.

؛ ليؤكّد تصميم اليهود على تحقيق أحلامهم، وإن احتاج الأمر إلى أجيال كثيرة، وعمل متواصل. يقول: " وكان هناك طفلان في الثامنة أو العاشرة من العمر، انخرطا في كرنفال النواح، حينما قاما بتقبيل الجزء السفلي من الحائط ..." [1]

7 ــ تحدّث عن ماضيهم في أوروبا، وأكّد إجماع اليهود في مختلف أنحاء الأرض، وتصميمهم على تحقيق أهدافهم، وهذا يظهر في التقائهم على أرض بيت المقدس أمام هذا المعبد والتوحّد في المشاعر، والإغراق في التوسل، واللهفة في الخطاب، والضعف أمام الذات وخالقها بحثا عن الكيان الذي اعتقدوا بأن الرب قد منحهم إياه، وما درينا هذه الدموع تضلّل أهل هذه الأرض وتوهمهم أن البحث عن الحلم بالرجاء والبكاء فحسب، فلا يفطن أحد لما كانوا يدبّرونه في الخفاء. يقول: "لقد اجتمع اليهود في هذا المكان الذي جاءوا إليه من جهات الأرض الأربع، جاءوا ليغرقوا في هذا الطقس البكائي الغريب، جاءوا من غاليتسيا، بسترهم الطويلة، وشعورهم التي تتهدل على الصدغ، ومن الجزيرة العربية بجلابيبهم البيضاء، ومن بولندا بشعورهم الحمراء القصيرة، ومن بابل بكل جلالهم، ومهابتهم تلك المهابة التي يتصف بها الآباء التوراتيون .جاءوا من روسيا، وإسبانيا، واليونان، والجزائر ".[2]

وحياة العار التي عاشوها في أوروبا هي التي وجهتهم إلى حائط المبكى، وكأنّه ملجؤهم الوحيد. يقول:" وفي مخاض حياة العار هذه ... كان هذا الحائط المتآكل بفعل قبلاتهم، يرفض أمام عيونهم، كأنّه الملجأ العالي" [3]

ويقرأ كازانتزاكي بإدراكه اللعنة التي نزلت بهم من خلال طقوسهم، وهي لعنة رموها على خصومهم فيما بعد .وقد استطاع كازانتزاكي أن يترجم هذه اللعنة إلى كلمات صاغتها عقولهم " سوف أدمّرهم، سوف أسلمهم إلى الخرائب والأطلال، والنواح، والسخرية، سوف أنزع عنهم صوت المتعة، وصوت السعادة، وصوت العريس، وصوت

([1]) الرحلة،ص67.

([2]) السابق،ص68.

([3]) السابق ،ص69، وما بعدها.

العروس، ...وضوء المصباح" [1].

إنّ نثر معاني هذه الكلمات يحتاج إلى صفحات ، ولكنّنا نختصرها في مصطلح واحد موصوف ،هو السّاديّة الممنهجة ،المتوارثة.

8 ــ تحدّث عن طقوس إحراقهم في أوروبا، وكشف عن سعادة الأوروبيين بالتخلّص منهم، والقارئ المتأنّي يذهب إلى الاعتقاد أنّ ما ترجمه الكاتب للعنتهم هذه، إنّما قصد منها القول: إنّهم حملوا في عقولهم الكره والحقد على الآخر؛ لما حدث معهم في أوروبا، ويؤكّد هذا قوله:" كانوا مبعثرين في كل بقاع الأرض، في غيتوهات اليهود المظلمة، وفي العصور الوسطى، كانت الجدران العالية تفصلهم عن بقية المدينة، وكانت الأبواب تفتح في الصباح، وتغلق في الليل، وكانوا يرتدون لباس الخزي، فقد كانوا يرتدون أشرطة قماشية حمراء أو صفراء على أكتافهم أو صدورهم، أو رؤوسهم. وفي شمال فرنسا في العصور الوسطى كانوا يرتدون قبعات صفراء، كانوا يرتدون كبودا أو قبعة حمراء أو خضراء، وقد كان عليهم أن يفعلوا ذلك حتى يتمكن معذبوهم من تمييزهم من أجل إساءة معاملتهم أو مهاجمتهم، دون أن يعاقبوا على ذلك .وعندما كان عليهم أن يسوقوهم إلى المحرقة، كانوا يلبسونهم الحلل السوداء الحزينة بالصلبان، ولهب جهنم، والشياطين، ويتركونهم يسيرون بين الجماهير المحتشدة التي ترتّل اللعنات على رؤوسهم "[2]

فهذا من وجهة نظر الكاتب عار لحق باليهود دعاهم للبحث عن بلاد تغسله، وقد توجهوا إلى هذه البلاد توجّه المظلوم الذي يصر على أخذ حقّه ، لكن ليس من أوروبا التي ظلمتهم، وقتلتهم، بل من أهل فلسطين فأصبحوا ، إدّعاء، هم الذين اغتصبوا خبزهم،

([1]) السابق،ص69.

ولعله استرجع يهوذا خائن المسيح، فكثير من المسيحين يعتقدون أن هذه اللعنة قد حلت باليهود منذ خان يهوذا المسيح عليه السلام، ويؤمنون بوجود مكان ليهوذا، وهجر خوفا من حلول اللعنة على زائريه. انظر : الراهب، دانيال :وصف الأراضي المقدسة، ص55.

([2]) الرحلة،ص69.

وأنكروا ماءهم، ومنعوهم حطبهم . [1] يقول: " ها هم الآن ينوحون، ووجوههم تتجه نحو هذا الحائط، ويدعون ربّهم...إلهنا، إلهنا أزح عنّا كربنا، لقد اغتصب الآخرون إرثنا، واحتلّ الغرباء بيوتنا، وأصبح علينا أن نشتري الماء الذي نشرب، والحطب الذي نوقد به نيراننا، لقد غادرت البهجة قلوبنا، وتحوّلت رقصاتنا إلى نحيب وتنهدات، لقد سقط التاج عن رؤوسنا"[2].

9 ــ تحدّث عن علاقتهم بنبيّهم موسى، عليه السلام، فهو يرى أنّه قائدهم، ولم يذكره بصفته نبيّهم، وأشار إلى أنّه كان يوجههم ويقودهم، وقد تشتّتوا بعده، وأصبحوا بلا هاد يقودهم، وبلا وطن يجمعهم[3]

10 ــ أكّد أنّهم يتصوّرون أشياء كثيرة، لا علاقة لها بالحقيقة والواقع، وقارب بينها وبين الأساطير القديمة، ومن ذلك أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ المعبد قد أعيد بناؤه، وأنّ صهيون قد نهض، بصورة جديدة كليّا، وأنّ المسيح قد دخل مرة أخرى من باب داود الحصين، " دخل كما تتصوّره الأساطير الموروثة على حماره الأبيض "[4] .

11 ــ لم يكن يضع العبريين كلّهم في دائرة واحدة، فثمة من بينهم من يسخر من معتقداتهم، وينكر عليهم كثيرا من طقوسهم . يقول:" كان بصحبتي صديق عبري، كان من المغامرين الملحدين الجدد، المؤثّرين والمنطقيين، استدار الصديق نحوي، وأرسل إيماءة ساخرة، وقال: يعتقدون أنّ صرخاتهم التي يطلقونها في الهواء قادرة على إعادة بناء القدس، في حين أنّ الإنتاج الضخم، وتوزيع الثروات، هما وحدهما القادران على خلق الجنس البشري الفعّال، وبناء القدس الجديدة" [5]

12 ــ وقف على بعض ما شاع في التوراة، من وصف جاذب للقدوم إلى فلسطين، ولعلّه استمدّ بعضه ممّا يشيع على ألسنة اليهود، ومن ذلك أنّ فلسطين كانت تفيض بأنهار

([1]) السابق،ص70.

([2]) السابق،ص70.

([3]) الرحلة،ص70.

([4]) السابق،ص75.

([5]) السابق ،ص75.

اللبن والعسل، ولا تنقطع خيراتها، ثم قلّت خيراتها بقدوم العرب إليهـــا، وكـــأنّهم جلبوا صحراءهم معهم.

يقول:" في العصور التوراتيّة كانت فلسطين تفيض بأنهار اللـــبن والعـــسل، وكانـــت قطوف العنب ثقيلة جدّا، لدرجة أنّ القطف الواحد كان بحاجة إلى رجلين لحمله، أمّا الآن، فإنّ المظهر الفلسطيني غير ظاهر فقد جلب العرب صحراءهم الموروثة" [1].

وبتأمل بسيط نجد أنّهم يحاولون إثبات الحقّ التاريخي لهم، بذكرهم أنّ العرب وفدوا إلى فلسطين بعدهم، وقد حملوا معهم الشؤم إليها.

أمّا كازانتزاكي فقد أدرك أنّ الروح اليهوديّة القديمة تهبّ على فلسطين مـــن جديـــد، وهدفهم أن يعيدوا أحلامهم إليها، فيحرثوا الأرض ويشقّوا قنوات الماء ويزرعوا، وينبوا، وهذه طريقة نبيلة في الحرب، من وجهة نظرهم، لأنّها تعيد النور والمتعة والبهجة إلـــى بلادهم المتروكة والمهجورة[2].

13 ــ تحدّث عن كيفيّة استقطاب الحركة الصهيونيّة اليهود ليصبحوا صهاينة.

فقد التقى فتاة يهوديّة شابّة تدعى "جوديت" وحاورها:" ماذا حصل لتصبحي صهيونيّة؟ فأجابت:كنت أدرس الطبّ .... كانت أوروبا كلّها تبدو لي قديمة، مألوفـــة، مبتذلـــة،كنت متعطّشة لشيء جديد، ولهذا فقد جئت إلى فلسطين، وسألها: لم لم تـــذهبي إلـــى روســـيا؟ فأجابت: لأنّه لا توجد حريّة هناك. وردّ عليها: هل وجدتها هنا في فلسطين؟ فأجابت: هنا تجد الحريّة . للمرّة الأولى أشعر أنّني حيّة وقويّة وقادرة على حبّ الأرض ... وقـــادرة على الإحساس بالغبطة ؛لأنّني أنتمي للجنس اليهودي .

فيجيبها الكاتب: " لقد بدأت بفقد حريّتك، لقد بدأت بتقييد نفسك وشدّها إلى ركن معيّن من الأرض، وبدأت بتضييق مساحة قلبك، فبعد أن كان فيه متّسع لكلّ العالم، أصبح الآن، يميّز، يفرّق، ويختار، ولا يقبل سوى اليهود..."

([1]) السابق،ص77، وما بعدها.

([2]) الرحلة،ص78.

وتصرخ الفتاة اليهوديّة :" نحن لا نريد أن نظلّ اليهود الرّحل، أكثر من ذلك..." [1].

ثمّ يتحدّث عن العقدة التي ألمّت باليهود بسبب شتاتهم وما عانوه في حياتهم، لكنّه يرى أنّ الشّتات هو وطنهم ولا جدوى من الهرب من هذا القدر والبحث عن السعادة والأمن في هذا البلد، ويتمنّى أن يطردهم العرب من فلسطين لأنّ هذا في صالحهم . يقول:" آمل ــ لأنّني أحبّ اليهود ــ أن يتمكّن العرب، عاجلا أم آجلا من طردكم من هنا، وأن يعيدوا تشتيتكم في هذا العالم"[2]

14 ــ استخدم كازنتزاكي عبارات اليهود نفسها التي تتناول طموحاتهم، وأفكارهم التي تأسست بوعي ديني، وسخّرت لها جهود عظيمة تعمل في الخفاء، ويذكر أوصافهم للأمكنة وللشعوب، فهم، كما يعتقدون، شعب الله المختار، وفلسطين هي الأرض الموعودة . يقول " وبعد قرون عديدة، ها هم الآن يرسلون ممثليهم :الفقراء، والمسنين، الذين سخرت منهم شعوب الأرض، إلى هذا الحائط، حتى يستطيع "يهوه" أن يرى الهوة السحيقة التي سقط فيها شعبه المختار،وليدرك ذاك الإله، أنه حان الوقت كي يتذكر ويحفظ كلماته. ألم يعدهم بأنه سيورثم الأرض كلّها ؟ ألم يحتفظوا بإيمانهم آلاف السنوات؟ ألم يلحق بهم الخزي والعار؟ ... "[3]

15 ــ انعكست آراؤه في اليهود على وصفه الأمكنة التي يقيمون فيها، فهي قذرة ضيّقة، تدفع المارّ منها لحثّ الخطى، ليخرج منها إلى النور، [4]، وانعكست تخوّفاته من المستقبل المنظور لمدينة القدس على مشاهداته للطبيعة ؛ فلون الشمس في وقت الغروب بدا عنده وكأنّه جدول من الدم ينبع من عين الشمس الغاربة.

16 ــ كان يغذّي حدسه عن اليهود بمراقبة بعضهم في الطرقات، وتتبّع خطواتهم ، وهذا يلغي الاعتقاد بسيطرة الرّأي المسبق عن اليهود على الكاتب، ويثبت رغبة واضحة في التعرف أكثر إلى ما يتّصل بالطقوس اليهودية في أماكن العبادة يقول:" عندما

([1]) السابق،ص79،وما بعدها

([2]) السابق،ص85.

([3]) الرحلة،ص70، وما بعدها.

([4]) السابق،ص65.

انعطفت نحو المنعطف، لاحظت حاخامين هرمين يندفعان باتجاهي ... وكان عليّ أن أتّبع هذين الحاخامين ؛ لأنّني حدست بأنّهما قد لبسا تلك الملابس الباذخة كي يقفا في حضرة إلههما، في تلك الخرائب القديمة، وينخرطا في بكائهما." [1]

17 ــ نقل صفاتهم بجرأة، معتمدا على الماضي والحاضر ؛ فهم المرابون الذين رهنوا علاقاتهم وأموالهم بالفائدة، وهم الذين يمتلكون أحلاما بالسيادة المطلقة التي لا تحدّها حدود، وهم الذين يضمرون غير ما يظهرون، ولهذا لم يستطيع الكاتب أن يتجاهل هذه الأفكار السخيفة، فوجد نفسه يهاجم تصوراتهم وينفي مزاعمهم . يقول " إنهم المرابون الذين رهنوا دموعهم وحبّهم من أجل الفائدة، وكان الله هو المديون[2] . ولكن المرابين العبريين يلحّون بالطلب، وباستمرار، بدموعهم وبسخطهم،كي يعيد إليهم دينهم "[3]

"الروح اليهودية تريد أن تقهر الأرض. تريد أن تجعل كل الشعوب تابعة لإيقاعها .وتريد سحق الواقع المعاصر ؛لأن الأرض لا تستطيع أن تحتمله، هذه هي خاصيتهم المميّزة العميقة"

ويرى أن اليهود يطالبون بالمطلق،وأنهم يسعون إلى تحطيم التوازن في العالم، وعليه فخطرهم غير محدود بزمان أو مكان، وليس مقتصرا على جنس دون آخر . يقول: " كان الإغريق يحبون بناء نسق موازٍ لنسق القوة، وفرحوا به، لذلك استطاعوا الانسجام والتوافق مع كل لحظة تمر. لقد أوجدوا التوازن في هذا العالم، ولكن اليهود يحاربون بلا انقطاع من أجل تحطيم هذا التوازن، وهز قلب الإنسان، لذلك فإن الواقع غير قادر على احتوائهم، واحتمالهم .ووراء كل دقيقة زائلة يطالبون بالمطلق"[4].

إنّ قوله :" الواقع غير قادر على احتوائهم، واحتمالهم" فيه تبرير واضح لما حلّ بهم في أوروبا، بمعنى أنّ الأوروبيين لم يكونوا يطيقون وجودهم في بلادهم ،ولهذا سعوا إلى

([1]) السابق،ص66.

([2]) وردت المديون ، والصواب المدين

([3]) الرحلة ،ص70.

([4]) الرحلة ،ص71.

التّخلّص منهم.

المرأة اليهوديّة.

المرأة اليهودية في هذه الرحلة لعوب شهوانية، وقد وصف الكاتب لباسها، وتحدث عن المساحيق التي تتوزع على وجهها، وقرأ الجوع الجنسي في نظراتها . فمشاركتها لبني جنسها في توسلهم أمام المعبد، ودموعها التي انسكبت في الكرنفال التراجيدي لم يمنعها كلّ ذلك من البحث عن العبث . يقول: "كانت تتكئ على الحائط، وترسل نظرات جانبية من عينيها، وتبتسم من فعل الرجال، كانت عيناها ما تزالان حمراوين من البكاء، ولكنها بعد أن ارتاحت من ذلك الطقس البكائي استسلمت لطيش الشباب الذي استحوذ عليها في تلك اللحظة، فتناست اللعنة السماوية التي ستنزل بها، والهيكل المدمّر، والقتلى من أبناء جنسها، وأخذت تنظر إلى أولئك الرجال نظرات شهوانية جائعة .كانت تدرك أن لا شيء سوى الحب، يمتلك القدرة على حماية جيلها، ويزيد من تكاثر اليهود، ويعيد بناء هيكل سليمان "[1]

فهو يرى أنّ اليهود يؤمنون أن مصيرهم مرتبط بالمرأة، وبأعدادهم ؛ ولهذا فهم حريصون على التكاثر، وإطلاق العنان للمرأة القادرة على التأثير والاستقطاب.

أما كبار السن من الرجال والنساء فقد كانوا يندبون وينوحون، وبعضهم كان يراود نفسه للابتعاد عن ذلك الحائط، لكنه كان عاجزا عن احتمال لحظة الفراق، " فعاد وألقى بنفسه على الحائط"[2]

خاتمة الرّحلة

أدرك الكاتب في الجزء الأخير من الرحلة الهدف الذي قدم لأجله، وهو كتابة مشاهداته للأمكنة والناس، وأدرك أنّ ثمّة أشياء كثيرة في الأمكنة عليه أن يتنبّه لها، ولهذا اهتمّ بوصف المدن بنباتاتها، وحيواناتها، وطيورها، وطرقها، وحرّها...، ومن بين ما اهتمّ به البحر الميّت، ومدينة أريحا، وحيفا، والخليل، والجليل. وقد كان في أوصافه روائيّا بحتا.

([1]) السابق ،ص68.

([2]) الرحلة ،ص68.

يقول في وصفه للبحر الميّت :" لقد اكتوت عيناي وأنا أنظر إلى تلك الصحراء المتبخّرة من القدس حتّى نهر الأردن، والبحر الميّت، تلك البقعة التي تنخفض أربعمائة متر عن سطح البحر الأبيض المتوسّط، ولم أر زهرة واحدة تنمو، ولا قطرة ماء تتصاعد من تلك الأرض الجافّة .كانت الجبال موحشة صارمة، وصعبة المنال، كانت نموذجا رائعا للفنان الذي يعشق الجمال "[1]

أمّا أريحا فيقول فيها :" ترى أريحا تبتسم لك، كواجهة معزولة، وتجد نفسك أمام بساتين الرّمان المزهرة، وأشجار الموز، والتين، والتوت، وكلّها محاطة بسياج من أشجار النّخيل الطويلة الرّشيقة، وتستمتع بالأشعّة الأيونيّة الخلابة، وينابيع المياه المتفجّرة، فترتاح عيناك، ويشعر جسمك بالراحة، والتّمدّد، ولكنّ هذه الواحة سرعان ما تختفي، وتبتلعها الرّمال"

أمّا حيفا فقد لفته فيها بساتين الرّمان المزهرة، وأشجار البرتقال والليمون، وأمّا مدينة الخليل القديمة ف" تحسّ بألفة وطمأنينة الأرض وهي تستقبل محراث الإنسان"[2] وقد انتشرت فيها أمراض فتكت بالناس والحيوانات . يقول: " حتّى الطيور التي تحلّق فوق الرؤوس يدركها الموت" [3] .

وفي الجليل تتراءى له جبالها أكثر ودّا وألفة في مظهرها العام، وترى فيها المياه والطّيور والأشجار تزوّد الطبيعة بالأنس والألفة.

وممّا سبق من الحديث الذي تناول فيه الكاتب اليهود والمسيحيين والمسلمين يتكشّف للدارس أنّ إعجابه بالمسلمين في بيت المقدس بخاصّة، وإعجابه بالشرق بعامة هو ما دفعه لتحذيرهم من الخطر القادم الذي تحاك خيوطه في الظلام. فقد كان للعالم العربي المسلم تأثير كبير على كازانتزاكي ؛ ولهذا نجده كثير التحدّث عن أصوله العربية والإفريقيّة، وعن جمال المناظر والصّروح هناك .

وبعد فإنّ هذه الرّحلة كشفت عن صورة قاتمة لليهود تكرّرت في الأدب العالمي

([1]) السابق ،ص76

([2]) السابق ،ص77.

([3]) السابق ،ص77.

بعامة، والأدب العربي بخاصة ، ولا أدلّ على ذلك من روايات شكسبير، فقد غدا بعضها يرمز إلى نمطيّة الصورة اليهودية، ومن ذلك اليهودي الشايلوكي، أمّا في الأدب العربي فيمكن تتبّع هذه الصورة عند غير أديب، وسأذكر للتمثيل أبا حيّان التوحيدي وابن عبد ربّه، وأبا نواس فمن ينظر في صورة اليهود عند أبي حيّان التوحيدي يجدها قاتمة، وسأكتفي بقصّة عرضها في كتابه" الإمتاع والمؤانسة" وهي تدرج في إطار الرحلات . فقد ذكر أنّ أبا الحسن علي بن هارون القاضي أخبره بقصّة لرجلين مسافرين ؛أحدهما مجوسيّ، والآخر يهودي ؛وكان المجوسي يركب بغلة، وعليها من الزاد والنفقة ما يجعله مرفّها وادعا، واليهودي يمشي بلا زاد، ولا نفقة؛ وفي الطريق بادر المجوسي بالسؤال، فسأل اليهودي عن مذهبه وعقيدته "فقال اليهودي : أعتقد أن في هذه السماء إلها هو إله بني إسرائيل، وأنا أعبده وأقدّسه وأضرع إليه، وأطلب فضل ما عنده من الرزق الواسع والعمر الطويل، مع صحّة البدن، والسلامة من كل آفة، والنصرة على عدوي، وأسأله الخير لنفسي ولمن يوافقني في ديني ومذهبي، فلا أعبأ بمن يخالفني، بل أعتقد أن من يخالفني دمه لي يحل، وحرام عليّ نصرته ونصيحته والرحمة به "

ثمّ قال للمجوسي :" قد أخبرتك بمذهبي وعقيدتي وما اشتمل عليه ضميري، فخبّرني أنت أيضا عن شأنك وعقيدتك وما تدين به ربّك ؟

فقال المجوسي : أمّا عقيدتي ورأيي فهو أنّي أريد الخير لنفسي وأبناء جنسي، ولا أريد لأحد من عباد الله سوءا، ولا أتمنّى له ضرّا، ولا لموافقي، ولا لمخالفي . فقال اليهودي :وإن ظلمك وتعدّى عليك؟ قال: نعم، لأني أعلم أن في هذه السماء إلها خبيرا عالما حكيما لا يخفى عليه خافية من شيء، وهو يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته . فقال اليهودي: يا فلان، لست أراك تنصر مذهبك وتحقّق رأيك. قال المجوسي: كيف ذاك؟ قال: لأني من أبناء جنسك، وبشر مثلك، وتراني أمشي جائعا نصبا مجهودا، وأنت راكب وادع مرفّه شبعان . فقال :صدقت، وماذا تبغي؟ قال :أطعمني من زادك، واحملني ساعة، فقد كللت وضغفت. قال : نعم وكرامة. فنزل ومدّ من سفرته وأطعمه وأشبعه، ثمّ أركبه، ومشى ساعة يحدّثه ؛فلمّا ملك اليهودي البغلة وعلم أن المجوسي قد أعيا، حرّك البغلة وسبقه، وجعل المجوسي يمشي ولا يلحقه، فناداه : يا فلان، قف لي وانزل، فقد انحسرت وانبهرت. فقال اليهودي :ألم أخبرك عن مذهبي وخبّرتني عن

مذهبك، ونصرته وحققته؟ فأنا أريد أيضا أن أحقق مذهبي، وأنصر رأيي واعتقادي . وجعل يحرّك البغلة، والمجوسي يقفوه على ظلع وينادي : قف يا هذا واحملني، ولا تتركني في هذا الموضع فيأكلني السبع وأموت ضياعا، وارحمني كما رحمتك. واليهودي لا يلوي على ندائه واستغاثته، حتّى غاب عن بصره ؛فلمّا يئس المجوسي منه وأشفى على الهلكة، ذكر اعتقاده وما وصف به ربه، فرفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي قد علمت أني اعتقدت مذهبا ونصرته، ووصفتك بما أنت أهله، وقد سمعت وعلمت، فحقق عند هذا الباغي عليّ ما مجّدتك به، ليعلم حقيقة ما قلت . فما مشى المجوسي إلا قليلا حتى رأى اليهودي وقد رمت به البغلة، واندقت عنقه، وهي واقفة ناحية منه تنتظر صاحبها؛ فلما أدرك المجوسي بغلته ركبها ومضى لسبيله وترك اليهودي معالجا لكرب الموت؛ فناداه اليهودي :يا فلان، ارحمني واحملني ولا تتركني في هذه البرية أهلك جوعا وعطشا، وانصر مذهبك، وحقق اعتقادك . قال المجوسي: قد فعلت ذلك مرتين، ولكنك لم تفهم ما قلت لك ولم تعقل ما وصفت.

فقال اليهودي : وكيف ذلك ؟ قال: لأني وصفت لك مذهبي فلم تصدقني في قولي، حتى حققته بعملي، وذاك أني قلت: إن في هذه السماء إلها خبيرا عادلا لا يخفى عليه شيء، وهو ولي جزاء المحسن بإحسانه . قال اليهودي: قد فهمت ما قلت، وعلمت ما وصفت . قال المجوسي: فما الذي منعك من أن تتعظ بما سمعت؟ قال اليهودي: اعتقاد نشأت عليه، ومذهب تربيت به، وصار مألوفا معتادا كالجبلّة بطول الدّأب فيه، واستعمال أبنيته، اقتداء بالآباء والأجداد والمعلمين من أهل ديني ومن أهل مذهبي، وقد صار ذلك كالآس الثابت، والأصل النابت؛ ويصعب ما هذا وصفه أن يترك ويرفض ويزال . فرحمه المجوسي، وحمله معه حتى وافى المدينة،وسلّمه إلى أوليائه محطّما موجعا، وحدّث الناس بحديثه وقصّته، فكانوا يتعجّبون من شأنهما زمانا طويلا".[1]

فالقصّة هذه تكشف عن مذهب اليهودي وعلاقاته بـ :

أ ـ الذّات

([1]) التوحيدي، أبو حيان :الإمتاع والمؤانسة، صحّحه وضبطه وشرح غريبة أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة ،بيروت ،لبنان ،(د.ت)157/2 وما بعدها.

ب ــ من يوافقه في المذهب والدّين (اليهود)

ج ــ الآخر (النّاس جميعهم من غير اليهود)

أمّا علاقته بالذات فيطلب لها الرزق الواسع ،والعمر الطويل، والصحّة في البدن ، والسلامة من كلّ شرّ ، والنّصرة على كلّ عدو.

أمّا بقيّة اليهود (من يوافقونه في المذهب والدّين) فيطلب لهم ما يطلبه لنفسه من خير ومنفعة، أمّا غير اليهود فلا يعبأ بأمورهم، ولا يسأل لهم الخير، بل إنّه يحتفظ بعداء مبطّن لهم جميعا؛ لإيمانه ،عقيدة، أنّ دماءهم محلّلة له، ويحرم عليه نصرتهم ،أو إسداء النّصح لهم، أو رحمتهم ، إن ألمّ بهم مكروه.

وتكشف القصّة أيضا الحيل التي يمتلكها اليهودي ليتمكّن من غيره ، أو ليحقّق حاجة ما ؛ فهو لا يتورّع عن المسكنة والتذلّل ، والتّرجّي إلى حين ، ثمّ ينقلب على خصمه. يقول موجّها خطابه للمجوسي:" لست أراك تنصر مذهبك وتحقّق رأيك. قال المجوسي: كيف ذاك؟ قال: لأني من أبناء جنسك، وبشر مثلك، وتراني أمشي جائعا نصبا مجهودا، وأنت راكب وادع مرفّه شبعان . فقال :صدقت، وماذا تبغي؟ قال :أطعمني من زادك، واحملني ساعة، فقد كللت وضغفت. قال : نعم وكرامة. فنزل ومدّ من سفرته وأطعمه وأشبعه، ثمّ أركبه، ومشى ساعة يحدّثه ؛فلمّا ملك اليهودي البغلة وعلم أن المجوسي قد أعيا، حرّك البغلة وسبقه، وجعل المجوسي يمشي ولا يلحقه، فناداه : يا فلان، قف لي وانزل، فقد انحسرت وانبهرت. فقال اليهودي :ألم أخبرك عن مذهبي وخبّرتني عن مذهبك، ونصرته وحققته؟ فأنا أريد أيضا أن أحقق مذهبي، وأنصر رأيي واعتقادي .

إنّ هذه الحيل التي لجأ إليها هذا اليهودي ،وتلك المسكنة التي وجدناها في الإمتاع والمؤانسة تماثل ما ورد في قصص الأمثال التي تناولت اليهود في العقد الفريد لابن عبد ربّه؛ فتحت عنوان مثل في الرياء يروي على لسان يحيى بن عبدالعزيز، فيذكر أنه قال:" حدثني نعيم عن إسماعيل ــ رجل من ولد أبي بكر الصديق رضوان الله عليه ــ عن وهب بن منبه قال: نصب رجل من بني إسرائيل فخّا فجاءت عصفورة فنزلت عليه، فقالت: ما لي أراك منحنيا؟ قال: لكثرة صلاتي انحنيت، فقالت : فما لي أراك بادية عظامك ؟ قال: لكثرة صيامي بدت عظامي، قالت : فما لي أرى الصوف عليك ؟ قال:

لزهادتي في الدنيا لبست الصوف، قالت : فما لهذه العصا عندك ؟ قال: أتوكأ عليها وأقضي حوائجي، قالت: فما هذه الحبة في يدك ؟ قال: قربان إن مرّ بي مسكين ناولته إياه، قالت:فإني مسكينة، قال : فخذيها، فدنت فقبضت على الحبة فإذا الفخ في عنقها، فجعلت تقول: قعى قعى، تفسيره لا غرني ناسك بعدك أبدا[1].

وإنما أراد من مثله هذا إسداء النصح بتجنب الحكم على اليهود اعتمادا على الظاهر منهم فحسب، فلطالما خدع، وغرر.

ومن قصص الأمثال الأخرى التي تكشف رأيه في بني إسرائيل أيضا قوله عن " داود ابن أبي هند عن الشعبي :أن رجلا من بني إسرائيل صاد قبّرة، فقالت: ما تريد أن تصنع بي ؟ قال: أذبحك فآكلك، قالت : والله ما أشفي من برم ولا أغني من جوع، ولكني أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي: أما الواحدة فأعلمها وأنا في يدك، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة، والثالثة إذا صرت على الجبل، فقال : هات، قالت: لا تلهفن على ما فاتك، فخلّى عنها، فلما صارت فوق الشجرة، قال: هات الثانية، قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل، فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درة فيها زنة عشرين مثقالا، فعض على شفتيه وتلهف، ثم قال: هات الثالثة، قالت له: أنت نسيت الاثنتين، فكيف أعلمك الثالثة ؟ ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك؟ فقد تلهفت عليّ إذ فتك، وقلت لك: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، فصدقت، أنا وعظمي لا أزن عشرين مثقالا، فكيف يكون في حوصلتي ما يزنها؟[2]

أمّا أبو نواس فرأى أنّ اليهودي عدائيّ للناس بعامة، وللعرب بخاصة، ويضمر غير ما يظهر، ويتوضّح هذا في قصيدة حوارية مع صاحب خمّارة. يقول فيها:

وفتيان صدق قد صرفت مطيّهم ... إلى بيت خمّار نزلنا به ظهرا
فلمّا حكى الزنّار أن ليس مسلما ... ظننّا به خيرا، فظنّ بنا شرّا
ولكن يهودي، يحبك ظاهرا ... ويضمر في المكنون منه لك الختر ا
فقلنا له : ما الاسم ؟ قال : سموأل، ... على أنّني أكنى بعمرو ولا عمرا

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد، مطبعة مصطفى محمد ، مصر ، 1935 ، 62/2.
(2) السابق 62/2.

ومـــا شـــرّفتني كنيـــة عربيـــة، ولا أكـــسبتني لا ســـناء ولا فخـــرا
ولكنهـــا خفّـــت، وقلّـــت حروفهـــا، وليست كأخرى إنّمـــا جعلـــت وقـــرا
فقلنـــا لـــه عجبـــا بظـــرف لـــسانه: أجدت أبا عمرو، فجوّد لنـــا الخمـــرا
فـــأدبر كـــالمزورّ، يقـــسم طرفـــه لأرجلنـــا شـــطرا، وأوجهنـــا شـــطرا
وقال: لعمـــري لـــو أحطـــتم بأمرنـــا للمناكم، ولكـــن سنوســـعكم عـــذرا[1]

فقد توسّم أبو نواس ومن معه في صاحب الخمّارة الخير ، لكنّه قابلهم بـــسوء نيّـــة ، وشرّ مضمر ؛ فبعد أن سألوه عن ديانته ،اكتشفوا أنّه يهوديّ يظهـــر حبّـــه للآخـــرين ، ويضمر لهم الغدر ،وعندما سألوه عن اسمه ،أجابهم أنّ اسمه عربيّ ، ولا يشرّف صاحبه ، والأسماء العربيّة خفيفة في وزنها، وتصيب الآذان بالصّمم، وفي ختـــام اللّقـــاء أدبـــر ،ونظر إليهم نظرة سريعة من الرّأس حتى القدمين نظرة تحمل الكره والاستصغار.

هذه حالهم ، وهذه طباعهم ، تتقاطع عند غير أديب، ليس تجاه العرب فحسب ، وإنّما تجاه الجنس البشري كله.

الخاتمة

لم تكن رحلة نيكوس كازانتزاكي إلى بيـــت المقـــدس للتعبّـــد ، أو للاســـتعمار ، أو للاستجمام ، بل كانت رحلة الصحفي الذي يبحث عن الحقيقة في المرئي والمتوقّع، وفي الممكن القريب ، والممكن البعيد (الذي كان في الاعتقاد الجمعي ، غير ممكن) .

ولم يكتف صاحبها بتسجيل المشاهدات ، وإنّما بحث في حقيقة الأشياء ، وطبيعة الفكر المسيطر على العقول ، الموجّه له ، فجاءت ذات أهميّة كبيرة في زمنها ، لكنّ أصـــحاب الشأن آنذاك لم يعطوها ما تستحق ، فلم تعد صرخة في واد ، لأمّة غارقة فـــي صـــمت قاتل.

لقد كشف الكاتب عن نوايا اليهود المبيّتة لاســـتعمار فلـــسطين ، والانطـــلاق إلـــى اللامحدود ، وكسر التوازن في هذا العالم ، وأكّد أنّهم يحلمون بالمطلق ، ويسعون إلـــى

([1]) أبو نواس :الديوان ،دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت ، بيروت، 1962 ، ص245.

الانتقام من البشر ؛ تفريغا للنّقمة التي حملوها بسبب ما حصل معهم في بعض البيئات الأوروبية ، واعتمد في مادّته على ماضي اليهود في أوروبا ، وما شاهده منهم أثناء إقامته في القدس عام 1926 ، وعلى المتوقع في المستقبل .

وقد أظهر حيادية موضوعية تجاه الجميع ، المسيحين منهم ، والمسلمين، واليهود ، مركّزا على أمكنة العبادة عند اليهود ، وما يؤدّى فيها من طقوس فيها إلحاح على الذات الإلهية بتحقيق أحلامهم ، وبناء وطنهم المفقود ، ولم يخف سخريته من حركاتهم ، وكثرة تقبيلهم لتلك الأماكن ، وإشراكهم النّساء والأطفال في طقوس التأكيد هذه.

وبيّن أنّ اليهود يحرصون على تنشئة أطفالهم تنشئة دينيّة ، ويحمّلونهم أفكارهم منذ الصغر لتبقى الأجيال وفيّة للحلم اليهودي الجمعي .

وأخيرا أطلق تحذيرا للعالم أجمع ، وللعرب ، ولليهود أنفسهم ، أما العالم فعليهم أن يتنبّهوا للمطلق الذي يسعى إليه اليهود ، وأما العرب ففلسطين في خطر ، وأمّا اليهود ، فثمّة حتميّة تاريخية تقضي بشتاتهم ، ولأنّه يحبّهم ينصحهم بالشتات ، وبخاصة أنّ دولتهم ستكون بين عرب أشدّاء .

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

ـ كراتشكوفسكي، أغناطيوس : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، لجنة التأليف والترجمة والنشر (د. ت) .

ـ التطيلي، بنيامين : الرحلة، ترجمة عزرا حداد ، بغداد ، 1945 .

ـ التوحيدي، أبو حيان :الإمتاع والمؤانسة، صحّحه وضبطه وشرح غريبة أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات دار مكتبة الحياة ،بيروت ،لبنان ،(د.ت).

ـ ثيودريش: وصف الأماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق سعيد عبدالله البيشاوي ود. رياض مصطفى شاهين، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2003.

ـ محمود ، حسني : أدب الرحلة عند العرب، رحلات أمين الريحاني نموذجا، الوكالة

العربية للتشر والتوزيع، (د.ت) .

ــ الراهب، دانيال :وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، نقلها إلى العربية وعلق عليها د سعيد عبدالله البيشاوي وداود إسماعيل أبو هدبة، 2003.

ــ السيرافي : الرحلة، ت عبدالله الحبش، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م.

ــ ضيف، شوقي : الرحلات، دار المعارف، سلسلة الفنون الأدبيّة، 1956.

ــ ابن عبد ربه: العقد الفريد، مطبعة مصطفى محمد ، مصر ، 1935 .

ــ كازانتزاكي، نيكوس : رحلة إلى فلسطين، ترجمة منيّة سمارة ومحمد الظاهر،مؤسسة خلدون للدراسات والنشر، 1989.

ــ ابن كنغليك: الرحلة إلى المشرق (1834 ــ1835) نقلها إلى العربية محمود العابدي، 1971، عمّان.

ــ أبو نواس :الديوان ،دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت ، بيروت، 1962 .

ــ الحجمة، نواف عبدالعزيز : رحلة الغرب الإسلامي وصورة المشرق العربي من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري (12 ــ 14 م) ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة . الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2008.

ــ فورزبورغ ، يوحنا: وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة وتعليق سعيد البيشاوي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 1997.